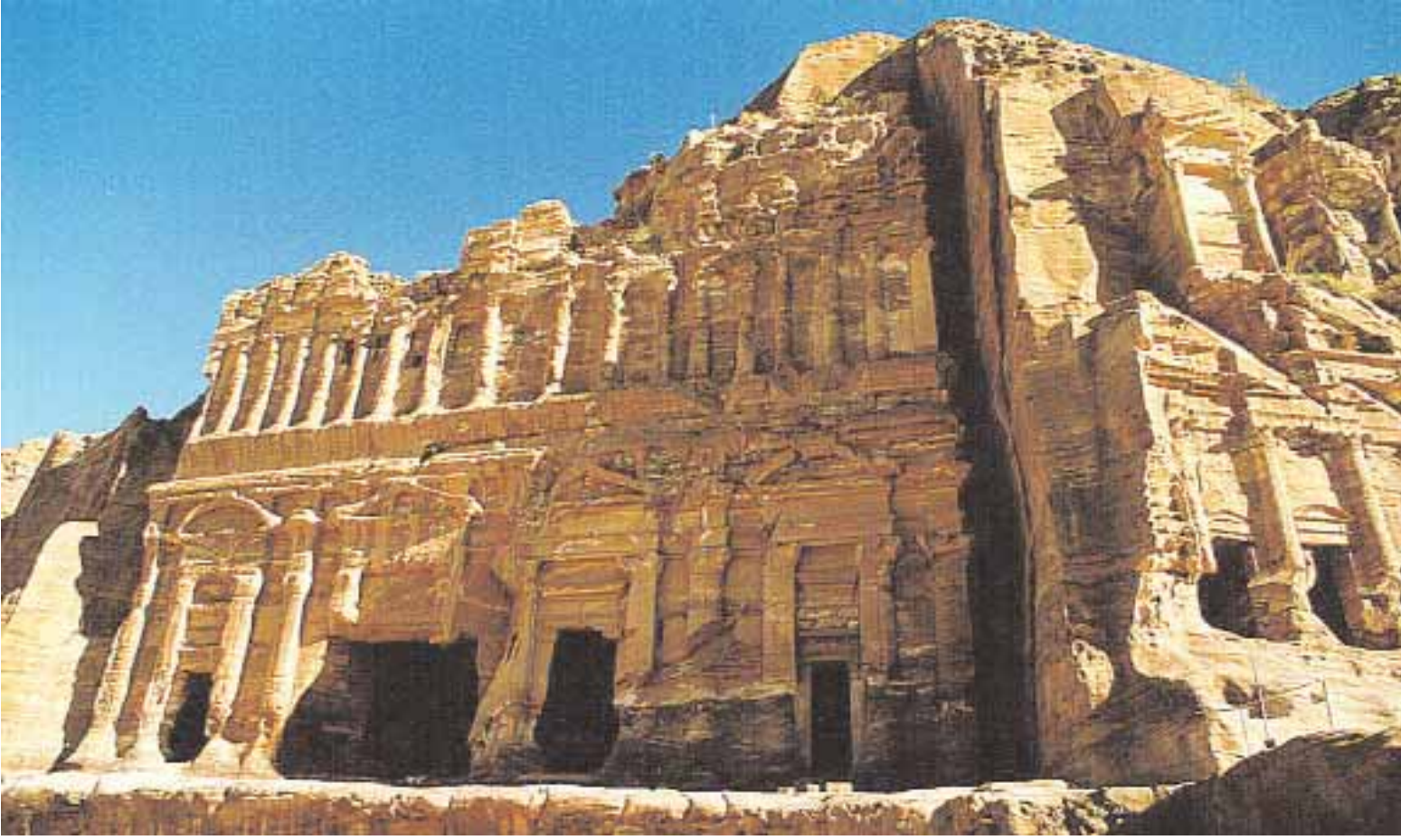




د. وليد أحمد السيد

# البتراء . المدينة الوردية المنحوتة من الصخر

## نموذج في الحفاظ التراثي الأثري كثروة قومية ورافد للسياحة



ليس من أحد لم يسمع بالمدينة الوردية الأردنية، وبخاصة بعد أن فازت في ٧-٧-٢٠٠٧ بالمركز الثاني لعجائب العالم المعاصر السابع، إلى جانب هرم تشيتشن إيتزا بالمكسيك، وتمثال المسيح الفادي بريو دي جانيرو، بالبرازيل، وسور الصين العظيم، ومدينة ماتشو بيتشو القديمة في بيرو، ومبنى الكولوزيوم بروما، وتاج محل بالهند، وأهرامات الجيزة بمصر. فالبتراء، هي مدينة منحوتة في الصخر الوردى اللون، ومن هنا جاء اسم بترا وتعني باللغة اليونانية الصخر. وتقع في الأردن جنوب البلد ٢٦٢ كم جنوب العاصمة عمان إلى الغرب من الطريق الرئيسي الذي يصل بين العاصمة عمان ومدينة العقبة. وتعتبر من أهم المواقع الأثرية في الأردن وفي العالم لعدم وجود مثيل لها. ■■

وقد اشتهرت المدينة تاريخيا كعاصمة لدولة الأنباط التي ازدهرت ما بين ٤٠٠ ق م وحتى سقوطها على أيدي الإمبراطورية الرومانية القاهرة آنذاك عام ١٠٦ م، والتي امتدت من عسقلان في فلسطين غربا وحتى صحراء بلاد الشام شرقا. وكانت المدينة الوردية أول ما أسس الأنباط لمملكتهم في العام ٤٠٠ قبل الميلاد، باختيار موقعها الاستراتيجي المخبوء بين الجبال ولوقوعها في ذات الوقت على طرق القوافل الإقليمية. وبذلك فقد أسست دولة الأنباط بزمام التجارة بين حضارات هذه المناطق وسكانها شرقا وغربا، وكانت القوافل التجارية تحضر إليهم التوابل والبخور والتبغ والذهب والفضة والأحجار الثمينة من الهند والجزيرة العربية للإتجار بها غربا والحرير من غزة ودمشق والحناء من عسقلان والزجاجيات من صور وصيدا واللؤلؤ من الخليج العربي، مما جعلها، وبحق، مدينة مفصلة مهمة إقليميا وتجاريا عدا عن قيمتها العمرانية والحضارية ومخزنها للمملكة النبطية، إضافة إلى كونها حصنا منيعا استراتيجيا صمد في وجه الغزاة تاريخيا لصعوبة الدخول إليها وتحصينها. ولم يستطع الرومان الجيابة من قهر المدينة إلا بحصارها المستمر سنة ١٠٥ ميلادية، بما يعرفه المؤرخون بـ"المقاطعة"، والتي وعلى أثرها سقطت المدينة حين منع الرومان الغزاة عنها مصادر المياه التي كانت ترفد المدينة عبر نظام فريد للري يجري على جانبي ممر ضيق بين الجبال يفضي للمدينة، يسمى "السيق"، مما أكسبها الطبيعة الدفاعية الفريدة.

مخطط يمتد لأكثر من أربعة كيلومترات في قلب المدينة التاريخي يجسد تصورات ورؤى "حديثة" لا تعكس حساسية عالية في التعامل مع البعد التاريخي العريق للوسط وما حوله من مجتمعات ذوي دخول مدنية. وبدلا من ذلك تميز المقترح بنوعية من المباني الرسمية عالية الخصوصية الأمنية، وشبكة من الشوارع السريعة المحيطة التي تعزل الموقع وتعزز دور السيارة وتقلل من دور المشاة خلافا لكل معايير التعامل الحساسة في العالم كله لمناطق الوسط التاريخية، مما يكرس مشروعا معزولا عما حوله حسيا واجتماعيا. ومن هنا تتبدى أهمية البعد الاجتماعي وضرورة إشراك العامة في آلية التخطيط المرحلية التي "تنمو" طبيعيا ولا تهبط من السماء بين ليلة وضحاها، مما لن يتقبله العامة من الناس في قلب المدينة وتاريخها الذي نشأوا فيه. وهذا من أبسط مقومات التخطيط والتصميم الحضري وبخاصة في مجال التطوير السياحي والأثري.

عشرات في قائمة اليونسكو. وفي هذا الإطار يمكننا تقديم مجموعة من النقاط المهمة في عملية الحفاظ التراثي والتي تتجاوز الموقع الفيزيائي نفسه لتشمل أطرا إجتماعية واقتصادية تسهم جميعا في إنجاح عملية الحفاظ التراثي للمواقع الأثرية. وانطلاقا من دراسات أكاديمية وخبرات عملية سابقة مع منتصف التسعينيات وفي إطار أجواء ربط المعالم السياحية إقليميا بالمحيط، يمكن تقديم مقترحات للتطوير تعنى بالبعد الاجتماعي كعامل مهم جدا في عملية التطوير. ففي حالة البتراء مثلا يبرز العامل الاجتماعي من خلال إعادة توظيف قبائل "البدول" والإرتقاء بالمستوى الاجتماعي والحرفي لثروة مجتمعية هائلة تناقلت عبر الأجيال بعضا من الحرف التقليدية، والتي على الرغم من بساطتها سحرت الرواد من السائحين لدرجة وقوع إحدى السائحات الفرنسيات في هيام المدينة والزواج بأحد أبنائها وقرار الإقامة فيها وترك زملائها

ومحليا بشبكة من العوامل الاجتماعية والسياسية والإقتصادية والتخطيطية التي تعزز من دورها السياحي المهم للأردن. وفي هذا السياق، كمعماريين ومخططين، جملة من السياسات والنقاط، والتي تتجلى ضرورة رؤية شمولية ونظرة تتجاوز النظرة الضيقة المحلية لتطوير موقع البتراء ضمن إطار مخطط شمولي. وبخاصة مع تدافع أعداد السياح الأجانب القادمين لزيارة مدينة البتراء، حيث يبلغ عدد زوارها خلال عطلة نهاية الاسبوع الواحد ما يزيد على ١٠ آلاف زائر من مختلف الجنسيات العالمية، بحسب الإحصائيات التي تتناقلتها الصحافة المحلية.

ومدينة البتراء هي نموذج من النماذج العديدة الأثرية التي يشكل الحفاظ عليها ثروة قومية وطنية للأقليم، وبخاصة في الأقاليم التي تزخر بالمناطق الأثرية المهمة. ومعلومة هي أهمية التراث خصوصا بالنسبة للسلطنة حيث تقع فيها الكثير من المناطق الأثرية المهمة التي يزيد عدده عن بضعة آلاف مسجل منها

وفي ذات الإطار ومن الخبرات العملية بالمشاركة في تصميم أحد فنادق البتراء، والعمل قبل عامين كمستشار لتطوير مدن مهمة بالمملكة منها موقع بمدينة معان كموقع استراتيجي على طريق قوافل الحج التاريخية. هناك العديد من المقترحات التخطيطية الشمولية التي يمكن تقديمها لتعكس الموقع "المعاصر" للبتراء على خريطة السياحة الأردنية والتي يمكن أن تعكس نظرات اقتصادية وبيئية واجتماعية وسياسية. فالقرات في مدينة البتراء لا يقتصر على القيمة الأثرية للمدينة، بل له أبعاد أخرى تتمثل في الموروث المجتمعي، بتطوير المجتمع المحلي وإعادة تأهيله ليوافق صناعة السياحة الحديثة، والإرتقاء ببرامج تطوير الحرف التقليدية ودمج هذه العوامل مع نسج الأحداث التاريخية والمواقع المهمة إنسانيا وعامليا، وتطوير مخططات شمولية تجعل المدينة الوردية، وبحق، "مسرحة" معاصرا يجسد عراقة التراث وتواصل المعاصرة. ومدينة البتراء الوردية هي واحدة من المآثر العديدة الفريدة التي يزخر بها وطننا العربي والتي تشكل بؤرة جذب سياحي من كافة أقطار العالم وتعمل على تنمية ورفد قطاع السياحة وصناعتها ورفد التنمية الإقتصادية والبشرية والحرف والصناعات اليدوية. وهي ثروات قومية محلية ينبغي رعايتها وتطويرها ودعمها مؤسسيا وحكوميا وخبرائيا من قبل الكوادر والخبراء والمختصين العرب في مجال الحفاظ الأثري والتراثي. ■



■ البتراء ثروة قومية ورافد ثقافي سياحي

معماري وأكاديمي ومدير مجموعة لونارد ودار معمار بلندن  
sayedw03@yahoo.co.uk